الدرس 12

**مضامين القصيدة الخمرية النواسية**

أبو نواس أو الحسن بن هانئ الحكمي شاعر عربي، يعد من أشهر شعراء عصر الدولة العباسية وكبار شعراء شعر الثورة التجديدية. يكنى بأبي علي وأبي نؤاس والنؤاسي. وُلد في الأهواز سنة (145ه‍ / 762م). ونشأ في البصرة، ثم انتقل إلى بغداد واتّصل بالبرامكة وآل الربيع ومدحهم, واتصل بالرشيد والأمين. وقد توفي في بغداد سنة (198ه‍ /813 م). شعر أبي نواس صورة لنفسه, ولبيئته في ناحيتها المتحرّرة, فكان أبو نواس شاعر الثورة والتجديد, والتصوير الفنّي الرائع, وشاعر خمرة بلا منازع. ثار أبو نواس على التقاليد, ورأى في الخمرة شخصًا حيّاً يُعشق, وإلهةً تُعبد وتُكرم, فانقطع لها, وجعل حياته خمرةً وسَكْرة في موكب من الندمان والألحان, ينكر الحياة ويتنكر لكل اقتصاد في تطلّب متع الحياة.

شاعر الملاحظة الدقيقة والإحساس العنيف, شاعر الهجران الذي يكثر من الشكوى. وهكذا كان أبو نواس زعيم الشعر الخمري عند العرب. ولكنه تاب عما كان فيه واتجه إلى الزهد، وقد أنشد عددا من الأشعار تدل على ذلك.

**من مضامين خمرياته:**

إنّ الوقوف على آفاق خمرة النواسي يقتضىِ منّا تتبّع أبعاد هذه الخمرة ومعانيها، على حسب المواقف التى استعملها الشاعر. وربّما نتعرّف على سير حياته في هذا النوع من الوقوف، على أنّه استعملها  في معاني مختلفة على حسب الظروف وعلى حسب ما وصل إليها من الناحية الفكرية. هذا هو أبو نواس يقول في سعة معنى خمرتة:

|  |  |
| --- | --- |
| دَقَّ معنى الخمرِ حتّى | هو في رجم الظّنونِ |
| ‎كلمّا حاوَلَها النّا | ظرُ من طرف الجفون |
| ‎رجعَ الطرفُ حسيراً | عن خيالِ الزَّرَجونِ |
| ‎لم تَقُم في الوَهم إلاّ | كذبّتْ عينَ اليقين |
| ‎فمتى تُدركُ مال | يُتَحرّى بالعيون |

ولخمرياته مراتب ودرجات، نذكر منها ما يلي:

**أ- الخمرة التقليدية:**

إنّه اتخّذ الخمرة - في بادئ الأمر - وسيلة لأغراض أخرى، كما اتخذها الشاعر الجاهلي والإسلامي والأموي قبله. منها الفخر. فلم يأت بشى‏ء جديد في هذا الصعيد من ناحية المعنى إلاّ أنّ في وصفه فيها روعة وجمال كما يقول:

|  |  |
| --- | --- |
| لمّا تبيّن أنّي غيرُ ذي بُخَل | وليسَ لي شغلٌ عنها وإبطاءُ |
| ‎أتى بها قهوةً كالمسكِ صافيةً | كدمعةٍ منحتها الخدَّ مرهاءُ |

وفي مكان آخر يفتحر بشربه الخمر الغالية ويقول:

|  |  |
| --- | --- |
| خطبنا إلى الدهقانِ بعض بناته | فزوّجنا منهنّ في خدره الكُبرى |
| وما زال يُغلي مهرها، ويزيد إلى | أن بلغنا منه غاية القُصوى |

وفي قصيدة أخرى يفتخر باستطاعته فى شراء الخمرة ويقول:

|  |  |
| --- | --- |
| يا قهوةً حرّمتْ إلاّ على رجلٍ | أثرى فأتلفَ فيها المال والنشبا |

كما افتخرها بها الشاعر الجاهلي عنترة بن شدّاد. قبله:

|  |  |
| --- | --- |
| فإذا شربتُ فإنّني مستهلكٌ | ما لي وعرضي وافرٌ لم يُكلَمِ |

وهذا الضرب من خمريات أبي نواس يرجع إلى بداية شاعريته، وهو مقلّد في أوّل أمره. ولا يكتب له فضل كبير، إلاّ أنه أتى بتعبيرات أجمل وأدقّ، وهذا يدلّ على ذكاوته ونبوغه الشعري الذي برز في حياته.

أنظروا إلى هذا التعبير وهو الفخر ولا شيء آخر، ولكن فيه عذوبة:

|  |  |
| --- | --- |
| والخُمر شى‏ءٌ لو أنّها جُعِلَت | مفتاح قفل البخيلِ لاِ نفتحا |

ولا نطيل الكلام أكثر من هذا في هذا الضرب من خمرياته. إذ إنّه مقلّدٌ ويحذو حذو الشعراء الجاهليين.

**ب - الخمرة الفنّية:**

بعد المرحلة التقليدية أدرك أبو نواس ضرورة التجديد في الشعر، فثار على الأعراف والتقاليد والقيم الأخلاقية السائدة التي لا تناسب أحوال مجتمعه. وهو في الحقيقة تبنّى على صعيد الشعر من الحرّية مبدأ  يعبّر من خلاله عن اتّجاهه الفكري، والفنّي، واتّخذ من الخمرة وسيلهً يجسّد من خلالها إيمانه بضرورة  التجديد في الشعر كما في الحياة، حيث يرى الدكتور طه حسين ويقول: «إنّه كان يُريد أن يتّخذ ويتخّذ الناس معه، في الشعر مذهبا جديدا. وهو التوفيق بين الشعر وبين الحياة الحاضرة، بحيث يكون الشعر مرآةً صافية  تتمثّل فيها الحياة، ومعنى ذلك العدول عن طريقة القدماء. لأنّ هذه الطريقة كانت تلائم القدماء وما ألّفوا من  ضروب العيش. فإذا تغيرّت ضروب العيش هذه وجب أن يتغيّر الشعر الذى يتغنّى به، فليسَ يُليق بساكن  بغداد، المستمتع بالحضارة ولذاتها، أن يصف الخيام والأطلال، أو يتغنّى بالإبل والشاء، وإنّما يجب عليه أن  يصف القصور والرياض ويتغنّى بالخمر والقيان. فإن فَعَلَ غيرُ ذلك فهو كاذب متكلّف»

فإنّه آمن برسالة الشعر في الحياة، وسعى جاهدا ًإلى ربط الجسور بين الواقع والشعر لتحقق غاياته و أهدافه وقد ألَحّ في شعره على تجسيد الحياة الحاضرة حيث يقول:

|  |  |
| --- | --- |
| أحبُّ إلىَّ من وَخْد المطايا | بموماة يُتيه بها الظليمُ |
| ‎ومن نعت الديار ووصف ربع | تلوحُ بها على القِدَم الرسومُ |
| رياض بالشّقائق مُونَقات | تكنّفَ نبتَها نورٌ عميمُ |
| ‎كأنّ بها الأقاحي حين تضحى | عليها الشمسُ طالعةً نجومُ |
| ‎ومجلس فتيةٍ طابوا وطابت | مجالسهُم وطاب بها النعمُ |
| تدارُ عليهمُ فيها عقارٌ | مُعتّقةٌ بها يصبوالحليمُ |
| ‎كؤوس كالكواكب دائراتُ | مَطالِعُها على الفلك الأديمُ |

وفي كثير من أشعاره يثور على نظام القصيدة القديمة وأشهرها:

‎

|  |  |
| --- | --- |
| لا تبكِ ليلى ولا تبك إلى هند | واشرَب على الورد من حمراء كالورد |
| كأسا إذا انحدرتْ في حلق شاربها | أجدتْهُ حُمرتَها في العين والخدّ |
| ‎فالخمرُ ياقوته والكأس لؤلؤة | من كف جارية ممشوقة القدِ |

ولا بّد من التأكيد في هذا المجال على أنّ رفض أبي نواس لشكل القصيدة القديمة وموضوعاتها وثورته عليها وسخريته من حياة الأعراب والبادية، لم تكن - كما زعم البعض - شعوبية عنصرية، تصدرُ عن  تعصّب لقوم دونَ قومِ، بل كان امتدادا لموقفه العام الّذي نبع من استقلال النظرة والّذي يلائم ذوقه ونفوره من التعصّب المقيت. وإننّا نرى ما قاله أبو نواس في إطار هجومه على أساليب الحياة القديمة، إن هو إلاّ دعوة  إلى نبذ التعصّب.

وفي هذا الإطار يقول:

|  |  |
| --- | --- |
| أيا باكيَ الأطلال غيّرها البلى | بكيتَ بعين يجفُّ لها غَربُ |
| أتنعتُ دارا ً قد عفتْ وتغيّرت | فإنّي لما سالمتَ من نعتها حربُ |
| ‎ونَدمانِ صِدقٍ باكر الرّاح سُحْرةً | فأضحى وما منه اللسانُ ولا القلب |

وفي مكان آخر يقول:

|  |  |
| --- | --- |
| دعِ الأطلالَ تَسفيها الجنوبُ | وتُبلي عهد جِدّتها الخطوب |
| وخلِّ لراكب الوجناء أرضا | تخبُّ بها النجيبةُ والنجيبُ |
| ‎بلادٌ نبتُها عشرٌ وطَلحٌ | وأكثر صيدها ضُبُعٌ وذيبُ |
| ‎ولا تأخذ عن الأعراب لهوا | ولا عيشا فعيشُهُمُ جديبُ |
| ‎دَع الألبانَ يشربها رجالٌ | رقيق العيش بينهمُ غريبُ |
| ‎فأطيبُ منه صافيةٌ شمول | يطوفُ بكأسها ساقٍ أديبُ |
| ‎أقامت حقبةً في قعر دنٍّ | تفورُ وما يُحَسُّ لها لهيبُ |

**ج - الخمرة الاجتماعية والسياسية:**

صوَّر أبو نواس من خِلال الخمرة أجواء عصره، وجَسّد من خلالها مظاهر الحضارة في مجتمعه، وما أودعته تلك الحضارة في ذلك المجتمع من بذخ وترفِ وقيان وغلمان وجوار. ولجأ مِن خلال الخمر إلى كشف سوءات مجتمعه وتعريته بأسلوبه الخاص وبوسائله التعبيرية الخاصة. ولجأ من خلالها إلى كشف الأقنعة من تلك الوجوه التّى كانت تتخذّ من الدّين والتمّسك بالأعراف ستارا تخفى تحته الرّياء والكذب والنفاق، ويرمي من خِلال ذلك إلى إعطاء صورة أمينة لبعض الأوساط الإجتماعيه في زمنه، إلى جانب أنه كان يعرض أحوال خلفاء بني العباس ورجالهم الذين كانت لهم مجالسُ أنسهم وطربهم مع القيان والغلمان و شرب الخمر، بينما كانوا يتظاهرون بالتقوّى الديني والوقار الاجتماعي. يقول في قصيدة يمدح من خلالها الأمينَ، متخذا من الخمرة أداته لهذا المديح:

|  |  |
| --- | --- |
| يا کثير النوح فی الدمن | لا عليها بل علی السکن |
| ‎سنة العشّاق واحدة | فإذا أحببتَ فاستكن |
| ظنّ بي من قد كلفتُ به | فهو يجفوني على الظنن |
| ‎تضحك الدُنيا إلى ملك | قامَ بالأحكام والسُننِ |
| ‎يا أمين الله عِش أبدا | فإذا أفنيتنا فَكُن |
| ‎كيف تسخوالنفسُ عنكَ، وقد | قمت بالغالي من الثمنِ |

وإذا أمعنّا النظَر في قوله: «تضحك الدنيا إلى ملك. . . » نرى إلى أي حدّ بلغت سخريته بالأمين وذلك حين ينعته بأنّه «قام بالأحكام والسنن». وهوالمعروف بتحللّه من الكثير من الأحكام والسّنن.

ولنستمع إليه وهو يقول في حضرة الأمين قصيدته الميميّة الّتي يرمز من خلالها إلى ما أصاب جماعته من ضيم وأذى في ظلّ الخلافة العباسية:

‎

|  |  |
| --- | --- |
| يا دارُ ما فعلتْ بكِ الإيّام | ضامَتْكِ والأيّام ليسَ تُضامُ |
| ‎عَرَمَ الزّمان على الّذين عَهِدتُهُم | بكِ قاطنين، وللزّمان عُرامُ |
| ‎أيّام لا أغشى لِأهلكِ منزلاً | إلاّ مراقبةً علىَّ ظلامُ |
| ‎وتجشّمت بي هولَ كلِّ تنوفةٍ | هوجاءُ فيها جرأةً أقدامُ |
| ‎ملكٌ أغرُّ إذا شربتَ بوجهه | لا يَعْدُكَ التبجيلُ والإعظامُ |
| ‎إنّ الذي يرضى الإله بهديه | مَلَكٌ تردّى المُلكَ وهو غلامُ |

في هذه القصيدة نلمح بوضوح كيف أنّ أبا نواس يحاول أن يكشف بعض صفات الخليفة وممارساته في مجالسه الخاصة. مبيّنا كيف أنَّ الأمين كان يقبل على الخمرة وكيف كان يشجّع من يشربها وذلك حين يقول:

|  |  |
| --- | --- |
| ملكٌ أغرُّ إذا شربتَ بوجهه | لا يعدُكَ التبجيلُ والإعظام |

وهل أبلغ من لفظة «الغلام» في البيت الأخير والّتي ساقها في إطار المديح للتعّبير عن الطيش والترف وعدم الشعور بالمسؤولية؟

وإذا ما عُدنا إلى شعر أبي نواس نرى كثرة الايحاءات والرموز التّي عبّر من خلالها عن رأيه السياسى. وأنّ أبا نواس الذي آمن بالحرّية وعاش في ظلّ مجتمع قيدّه العبودية، كان يدرك بأن مقاومة ديكتاتورية الخلافة وكمّها لِلأفواه بشكل عيني، هما ضربٌ من التّهوّر. لذلك اتّخذ من السخرية المبطنة أسلوبا يعريّ من خلاله ويفضح الحياة الخاصّة للبلاط. ونعلم أنّ الجد المخبوء تحت الهزل هومِن أشدّ أنواع الجد تأثيرا وتأثيرها أكثر من الجدّ الظاهر.

من هذا المنطلق نرى بأنّ شعره الخمري يحمل كثيرا من معاني السخرية الموجّهة إلى السلطة الجائرة، أو إلى المجتمع المستكين لهذه السلطة والمتأثر بممارستها التّي كان النفاقُ ناظما عاما لها. وكان المجتمع الذي يُحبُّ أن ينحت صنما للعبادة. كما يرى الدكتور شوقي ضِف ويقول: «فمثلاً هارون الرشيد حين يمدحه أبونواس أو أبوالعتاهية لا يمدح شخصه من حيث هو، وإنما يمدح المثل الأعلى للخليفة الكامل كما يتراءى فى مخيلة الجماعة الاسلامية. »

فلا بدّ للشاعر أن يكشف عن هذه القداسة الكاذبة ويعلن إعراضه عن أساليب المجتمع في التستّر والنفاق والخِداع. ولا يرى حرجا في هذا المجال من أن ينادي بأعلى صوته:

‎

|  |  |
| --- | --- |
| اشرَب- فُديتَ –علانيةْ | أمُّ التستّر زانيه |
| ‎اشرب فديتكَ واسقني | حتّى أنامَ مكانيه |
| ‎لا تقنعنَّ بسكرة | حتّى تعودَ بثانيه |
| ودَع التستّر والرّياء | فما هُما مِن شانيه |

ومن وقوفه على رياء الناس وكذبهم ونفاقهم يعودُ، فيؤكد عدم اكتراثه بهم وبلومهم له، ويلحّ على الصدق وعلى المجاهدة التي يطرحها بدليلاً عن السرّية التي يكتنفها النفاق والكذب، كما يقول طه حسين:  «كان أبونواس في هذا الشعر المخالف لِلأخلاق وأصول الفضيلة، محبّا لِلأخلاق وأصول الفضيلة، كان يؤثر الصدقَ وينكر الكذبَ» حيث يقول:

‎

|  |  |
| --- | --- |
| دعني من الناس، ومن لومهم | واحسُ ابنةَ الكَرم مع الحاسي |
| ‎فخمرة أنتَ لها رابحٌ | في حالتَىْ يُسرٍ، وإفلاسِ |

**د - الخمرة النفسية:**

عاش أبونواس وحيدا في عصره وما كان أحد يدرك همومه التي قد ألمّت به، فاتّخذ من الخمرة وسيلة لتبديد الأحزان التى تاكُل روحه؛ كان وحيدا ً فى ذلك المجتمع الغارق فى النّفاق والرّياء. وكان صعبا ً عليه أن يرى بأن الآمال الإنسانيّه تمحوشيئا فشيا في ظلّ دولة تدّعي بأنها تحافظُ على الدين والإنسانية، فی حالة كانت في الحقيقة عدوّ الإسلام والإنسانية. فما كان له أن يداوى آلامه إلاّ باللجوءِ إلى نفسه وإلى خلواته.

ولنستمع إليه وهو يردُّ على من عاب عليه معاقرة الخمرة، زاعما ً أنّه خالى القلب من الهموم والأحزان،  وأن الخمرة مجرّد وسيلة إلى التبذّل والعربدة، يقول:

|  |  |
| --- | --- |
| إذا شاقك ناقوسٌ | وشجوُ الناي والعودُ |
| ‎وغوديتَ بريق الخم | ر مجّته العناقيدُ |
| تطرّبتَ إلى الإلفِ | فقالوا أنت عربيدُ |
| ‎وهل عربدَ مكروب | قريحُ القلب معمودُ |

إنّه يسخر من هؤلاء الذين يتهمونه باللامبالاة والعربدة، يسخر منهم، لأنهم لا يدركون ما بقلبه من هموم وأوجاع. كثيرة هي الأبيات التّي عبّر أبونواس من خلالها عن عذاباته وهمومه وجَسَّدَ مِن خلالها النفسية ووارى بها أحزانا ً وآلاما ًلم یکن بإمكانه أن يبوح بها أويفصح عنها. فها هوذا، يداوي الهموم بالخمر:

|  |  |
| --- | --- |
| إذا خطرتْ فيكَ الهمومُ فداوها | بكأسك حتّى لا تكونَ هموم ُ |
| أدرها وخُذْها قهوةً بابليّةً | لهابين بُصرى والعراقِ كُرومُ |

وفي موضع آخر يقول:

|  |  |
| --- | --- |
| طربَ الشيخ فغنّی | من عُقار تنهبُ الهمَّ الفَرَح |
| أخذت من كلِّ شيء لونها | فهي في ناجودها قوسُ قزح |

ولم تكن الخمرة عند أبي نواس وسيلة لبتديد الأحزان فحسب. بل كانت كذلك وسيلة لكشف منابع الحسن والجمال في كلّ شيءٍ. ففيها يجمل العالم، وتحلوالطبيعة، وفيها يتجلّى جمال الدنيا وروعة الوجود.  كما يقول:

|  |  |
| --- | --- |
| لا تخشَعَن لطارق الحدثَان | وادفع همومك بالشّراب القاني |
| ‎أوماترى أيدي السحائب رقّشت | حُلَلَ الثرى ببدائع الريحان ِ |
| فإذا الهموم تعاورْتكْ فسلِّها | بالرّاح والريحان والنُدمانِ ِ |

وكثيرة هى الأبيات التّى دعا أبونواس من خلالها إلى التمتّع بالعالم، وبهاء الطبيعة عبر تغنّيه بالخمرة و حثه على الإكثار ومنها:

|  |  |
| --- | --- |
| ألا فاسقني مِسكيّة العَرف، مُزَّةً | على نرجسٍ تعطيكَ أنفاسه الخَمرُ |
| ‎عيونٌ إذا عاينتها فكأنّما | دموع الّندى من فوق أجفانها دُرُّ |
| ‎مناصبها بيضٌ وأجفانها خُضرُ | وأحداقُها صفرٌ: وأنفاسُها عِطرُ |
| ‎بروضة بستانٍ كأنَّ نباتها | تقنّعَ وشيا حينَ باكرها القطرُ |
| يديرُ علينا الشمسَ والبدرُ حولَها | فيا مَن رأى شمسا يدور بها بدرُ |

وفي موضع آخر يقول:

|  |  |
| --- | --- |
| تعلّل بالمُدام مع الندّيم | ففيه الرَّوحُ من كُرَب الغموم |
| وبادر بالصّبوح، فإنّ فيه | شفاءَ السُقم للرَّجل السّقيم |

**ه‍ - الخمرة الأخلاقية والرّوحية:**

لم تكن الخمرة عند أبي نواس وسيلة من وسائل التعبير عن أبعاد موقفه من الفّن والحياة والقيم الاِجتماعية والسّياسية، ووسيلةً للتّعبير عن معاناته الوجدانية فحسب، بل إنّه ابتكر نوعا آخر من الخمريات في أواخر حياته وهو بلوغ شعره الخمري وهي الثمرة الناضجة من شجرة خمرياته.

هذه الخمرة كلّها الضوء والفرح والنشوء والمعاد والتناهي والتجلّي وكأنّها روح متمرّدة، ثائرة،  قادرة على الخلق. هذا النوع من خمرياته يجعل من أبي نواس واحدا من هؤلاء السالكين دروب العارفين،  المهمومين بأسرار الكون والحياة، وفي كلّ مرة نعود إليها نسمع نبضا يتوق إلى معانقة المطلق والإمساك بسّر الوجود ونرى موقفه الأخلاقي من خلالها. أنظروا إلى هذه الأبيات:

|  |  |
| --- | --- |
| نفس المدامة أطيبُ الأنفاس | أهلاً بمن يحميه مِن أنجاس ِ |
| ‎وإذا خلوتَ بشربها في مجلس | فاكفُف لسانك عن عيوب الناس ِ |
| ‎في الكأس مشغلة وفي لذاتها | فاجعل حديثك كله في الكأس ِ |
| ‎صفوالتعاشُر في مجانبة الأذى | وعلى اللّبيب تخيُّرُ الجُلاس ِ |

ونسمعه يقول أيضا على لسان خمرته التّي تبعِدُ بصفائها عن معشر السفلة من الناس:

|  |  |
| --- | --- |
| لا تمكننِّي من العربيد يشرَبُني | ولا اللّيئم الّذي إنْ شمَّني قَطبا |
| ‎ولا المجوسُ فإنّ النارَ ربّهُمُ | ولا اليهود، ولا من يعبُدُ الصُلُبا |
| ‎ولا السّفالِ الذي لا يستفيق، ولا | غِرَّ الشباب، ولا من يجهل الأدبا |
| ‎ولا الأراذل، إلاّ مَن يُوَقّرُني | مِن السُّقاة، ولكن اسقني العربا |

وهكذا نسمع إليه كيف يحمل خمرته أبعاد نظرته الإنسانية، جاعلاً من مجالسها أندية عامرة بالحبّ و الإيثار والتضحية والكرم، حيث يقول:

|  |  |
| --- | --- |
| ومجلسٍ ما له شبيه | حلَّ به الحسنُ والجمالُ |
| يمطرُ فيه السّرورُ سحّا | بديمةٍ مالها انتقالُ |
| شهدته في شبابِ صدقٍ | ما إن تُسامى لَهُم فَعالُ |
| ‎نأخُذَ صهباء، بنتَ كرمٍ | عذراءَ، لَم تَؤوِها الحجالُ |
| ‎نشرَبُها بالكبار صِرفا | وليسَ في شُربنا مُطالُ |

وكما كانت خمرة أبي نواس وعاء للحّب والكرم والأخلاق، فهي أيضا تعبّر عن حاجة روحية لديه لِتصبح منبعا للنّقاء والصفاء ووسيلة للخلاص من عالم قاتم:

|  |  |
| --- | --- |
| عاذلي في المدام غيرَ نصيحٍ | لا تَلُمني على شقيقة روحي |
| لا تَلُمني على الّتي فتنتَني | وأرتني القبيحَ غيرَ قبيح ٍ |
| ‎قهوةٌ تتركُ الصحيحَ سقيما | وتُعيرُ السقيمَ ثوبَ الصحيح ِ |

هذه أهم مضامين القصيدة الخمرية النواسية، ولا يسعنا المجال في هذا المقام القصير أن نفصل فيها، والمجال مفتوح لتدبر معانيها وتقصي أهدافها ودوافعها ومراميها.